على عليوة أبو الوفا
أو
علم المكتبات الاجتماعى

بقلم
رئيس التحرير

وضع الأستاذ محمد جلال عبد القوى، لا فض فوه ولا توقف قلمه عن العطاء، يدنا فى مسلسله الرائع «على عليوة» الذى امتد على مدى ثمان وعشرين حلقة بين شهرى نوفمبر وديسمبر ١٩٩٦، على المأساة التى تعيشها الكتب والمكتبات فى مصر فى النصف الثانى من القرن العشرين، ومحاربة الفكر وأدواته ورموزه.

لقد نعى علينا تحويل دور النشر فى الفجالة إلى محلات لتجارة الأدوات الصحية ودار النشر هنا ليست سوى رمز مجرد للفكر الذى يهان ويهدر، والفجالة ليست سوى رمز للمكان، فالفكر يهدر ويهان فى جميع أنحاء مصر. فقبل دار النشر التى تحولت إلى محل لتجارة الأدوات الصحية، تحولت بعض متاجر الكتب فى ميدان طلعت حرب إلى محل لتجارة الأحذية. وإن كانت دور النشر ومتاجر الكتب هى منبع الفكر ومصنعه ومنتجه، فإن المكتبات هى مستقر هذا الفكر ومستودعه تحفظه للأجيال المتعاقبة وتنظمه وتحلله وتقدمه للعلماء والباحثين ومن هنا ينطلق البلد ويتقدم. فالتقدم هو أن نبدأ من حيث انتهى الأخرون ولن نعرف أين انتهى الأخرون إلا إذا جمعنا الفكر ونظمناه وحفظناه للأجيال تنهل منه وتبنى عليه.

تعيش أدوات الفكر – المكتبات – فى مصر فترة من أسوأ فتراتها، فانظر إلى المكتبة الوطنية فى مصر كيف أهملت وعشش فى جنباتها الخراب وكيف امتد التخريب إلى كل مرافقها ومقتنياتها، أنظر كيف تزاحمها فى مبناها مؤسسة غريبة وموظفون غرباء وزوار أكثر غرابة، أنظر إلى تراث الأمة فى هذه المكتبة الوطنية كيف تصول فيه الحشرات والأرضة والفئران، وأنظر إلى محل البطاطين والملابس والمراوح فى قفا قسم المخطوطات ومخازنها، وأنظر إلى معرض الأدوات الكهربائية والدراجات والملابس والأحذية على يمينك وأن تدخل إلى دار الكتب المصرية، عقل البلد ومستودع فكره، أنظر إلى هذا كله واعجب وتدبر ما آل إليه حال المؤسسة التى أنشأها على مبارك ورعاها السلاطين والملوك؛ وترحم على، على مبارك والذين كانوا حوله بل وترحم على الملكية والاقطاع، والرأسمالية.

وليس حال المكتبات الجامعية فى مصر النصف الثانى من القرن العشرين بأفضل من حال المكتبة الوطنية، فليس هناك مكتبة جامعية واحدة فى كل مصر، سواء مكتبة الجامعة أو مكتبة الكلية أو مكتبة القسم، يمكن أن تصلح أداة بحث فلا مبانى ولا مقتنيات ولا موظفون ولا خدمات ولا ميزانية، بل خبطات عشوائية فى كل اتجاه ومن هنا تحولت الجامعات من البحث العلمى – لانعدام ركيزته الأساسية – إلى جامعات الكتاب المقرر والحفظ والاستظهار والتلقين ومن ثم تسطيح العلم. ولقد سمعنا كثيرا ورددت الصحف وعود الدولة برصد ملايين الجنيهات لاقالة المكتبات الجامعية من عثراتها، تلك المكتبات التى لم تزود بشىء له قيمة منذ عدة عقود؛ ولكن وعود الدولة كثيرة وتنفيذ تلك الوعود نادر محدود.

وينسحب نفس الحال على المكتبات العامة فى مصر فلا هى من حيث العدد يمكن أن تغطى أى قدر من المعايير الدولية حتى تلك الموضوعة للدول النامية ولا هى من حيث العدة تفى بأى قدر من الخدمات المكتبية المفروض أن تقدمها للجموع المتعطشة للقراءة والاطلاع. ولا هى من حيث الادارة يمكن أن تضطلع بأى قدر من المسئولية..

ولا تسلم المكتبات المتخصصة أو المكتبات المدرسية من الحرب الخفية فى تدمير الفكر وتسطيحه، سواء عن عمد أو عن يأس.

إن مكتبة الاسكندرية الجديدة التى لاينقصها المكان أو المال، قبل أن تنشأ امتدت إليها يد التدمير والاهمال والفساد فعوقت مسيرتها وخيبت آمالنا فيها وألقت بظلال من الشك والريبة على مستقبلها، وقضيتها الآن هى موضع التحقيق ولا نريد الدخول فى تفاصيل مأساتها الآن إلى أن ينتهى التحقيق.

هل هناك فعلاً خطة مرسومة لتدمير المكتبة المصرية والفكر المصرى وتسطيحه مع عدم وجود مانع للدعاية والاعلان عن نهضة فى عالم المكتبات المصرية، أم أن تدمير المكتبة المصرية والفكر المصرى هو جزء من حالة الاهمال العام والنهب العام التى تسود البلد؟

لقد انفقت مصر أكثر من مليار جنيه على دورة الألعاب الافريقية وقيل فى ذلك الصدد ما قيل من مبررات مثل أننا كسبنا من الدورة أكثر مما دفعنا فيها أو أن المبانى والمنشآت موجودة على أرض مصرية، يا سادة المكتبات أيضا موجودة على أرض مصرية والله العظيم.

إننا ننفق كذلك بسخاء شديد على مهرجانات السينما والمسرح العادى والمسرح التجريبى ونعطى المنح والهبات والعطايا والجوائز بذات الشمال وذات اليمين، والمكتبات فى حاجة إلى كسرة من تلك المليارات؛ والمكتبات هى اساس السينما والمسرح والألعاب الرياضية والعلم والتقدم والسياسة والاقتصاد والاجتماع.

ولعن الله قوما ضاعت المكتبات والكتب بينهم.

رئيس التحرير